رسالة فضيلة المرشد العام :الأمة الواحدة في مدرسة رمضان

الخميس 1 يناير 2004 12:01 م

20/08/2009

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد؛

فلم يزل الموفَّقون ينتهزون الفرص الثمينة للفوز بخيري الدنيا والآخرة، ولا يتأخرون في استثمار ما هيأ الله لهم من أسباب الخير، ولذلك تجدهم في رمضان الخير يعمرون نهارهم بالصيام وليلهم بالقيام، ويسابقون أوقاتهم وينافسون إخوانهم في الذكر والقرآن والطاعات، مستجيبين لقوله r: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ، فِيهِ خَيْرٌ يُغَشِّيكُمُ اللهُ فِيهِ، فَتُنَزَّلُ الرَّحْمَةُ، وَتُحَطُّ الخَطَايَا، وَيُسْتَجَابُ فِيهِ الدُّعَاءُ، فَيَنْظُرُ اللهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» (الطبراني).

وإذ يتقدم الإخوان المسلمون بالتهنئة للأمة في مشارق الأرض ومغاربها بمطلع هذا الشهر الكريم، ويدعونهم للاستفادة من (مدرسة الثلاثين يوما) فإنني أشير إلى بعض دروسها المباركة، لعل الله ينفع بها:

1 - رمضان شهر الصوم عن المعاصي:

يدرك أصحابُ العزائم القوية أن الصيامَ تربيةٌ نفسيةٌ سامية، وتدريبٌ راقٍ على الصبر وكظم الغيظ، وأنه ليس المقصودُ من تشريع الصيام نفسَ الجوع والعطش، بل ما يتبعه من قوة الإرادة والسموّ الأخلاقي والروحي، وكسرِ الشهوات، وتطويعِ النفسِ الأمَّارة بالسوء للنفسِ المطمئنَّة، بمعنى أنه وقايةٌ وحِصنٌ من الوقوع في المعاصي، وواقٍ لصاحبه مما يؤذيه من الشهوات ومن ممارسة شيءٍ من الأقوال أو الأفعال غيرِ اللائقة، وإن اعتدى غيرُه عليه بقوله أو بفعله، على حد قوله r: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ، وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِم» (متفق عليه)، وقوله r: «أَعِفُّوا الصِّيَامَ، فَإِنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا مِنَ الشَّرَابِ، وَلَكِنَّ الصِّيامَ مِنَ المَعَاصِي، فَإِذَا صَامَ أَحَدُكُمْ فَجَهِلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ أَوْ شَتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِم» (الطيالسي)، وقوله r : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَعَرَفَ حُدُودَهُ، وَتَحَفَّظَ مِمَّا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَفَّظَ كَفَّرَ مَا قَبْلَهُ» (صححه ابن حبان).

فإذا لم يحصل ذلك فإن الله لا ينظر لهذا الصيام نظرَ القبول، على حد قوله r: «رُبَّ - أو كَمْ مِنْ - صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الجُوعُ والْعَطَشُ، ورُبَّ - أو كَمْ مِنْ - قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ» (أحمد وصححه ابن خزيمة)، وقوله r: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» (البخاري) وبذلك ينصحنا جابر بن عبد الله t فيقول: «إذا صمتَ فلْيَصُمْ سَمْعُك وبصرُك ولسانُك عن الكذب والمَحارم، ودَعْ أذى الخاصة، ولْيَكُنْ عليك وقارٌ وسكينةٌ يومَ صيامك، ولا تجعلْ يومَ فطرِك وصومِك سواء».

فتخيَّل معي كيف يكون حالُ الدنيا لو أن هذا الصومَ الذي أراده الله تحقق في حياة الناس أجمعين، أو حتى في حياة المسلمين، فطهَّر النفوس من رذائلها وفسادها، وتعهدها بمكارم الأخلاق في رحلةٍ تدريبيةٍ سنويةٍ مُدّتُها ثلاثون يوما، تمد القلب بزاد الصبر والثبات والعزم وقوة الإرادة، وتحقق فيه معنى التقوى التي جعلها الله غاية لهذه الفريضة المباركة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:183).

فهل يلتفت لهذه المعاني أصحابُ القلوب المؤمنة الحية فينسجوا على منوال أسلافهم من الصالحين، ويملؤوا الدنيا نوراً وسلاماً وبركة، ويُشيعوا فيها أخلاقَ الطُّهْرِ والصفاءِ، وقِيَم الحق والعدل والإخاء، حتى يتحقق لهم النصر والعزة والتمكين؟!.

وهل يلتفت لتلك المعاني أولئك الذين جعلوا همَّهم نصرةَ الباطل، وقولَ الزور، ورميَ البرآء بالعيوب، واضطهادَ المصلحين، فبراجعوا أنفسَهم ومواقفَهم، ويصحِّحوا خطأَهم ومنطلقاتهم، ويمدُّوا أيديَهم للتعاون مع المخلصين؛ ليتحقق للأمة ما يليق بها من مكانةٍ لائقةٍ في عالم الناس.

2- رمضان شهر الوحدة والتعاون:

الوحـدة هي شـعار هذه الأمة (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) (الأنبياء:92)، وشـريعة الإسـلام الغراء تحرص على تحقيق هذه الوحدة بكل سبيل، والناظرُ إلى العبادات التي فرضـها الله على عباده يـدرك بيقينٍ أنه يجعل وحـدة العبادة وإخلاص العبودية لله أهمَّ سبيل لتحقيق وحدة الأمة، وللصـيام من ذلك نصـيب كبير، فالجميعُ يبدأ صومَه مع صـيحة المؤذِّن للفجر ويتناول إفطارَه مع صـيحته للمغرب، والجميعُ يتحرك لإحياء الليل بالقيام، فضلاً عما يقتضيه الصومُ من توحيـد المشـاعر والأفكـار، يقول الرافعي رحمه الله: «هـذا الصومُ فقرٌ إجباريٌّ، تفرضه الشـريعةُ على الناس فرضاً، ليتساوى الجميعُ في بواطنهم، سواءٌ منهم مَنْ ملك المليون من الدنانير، ومَنْ ملك القرش الواحد، ومَنْ لم يملك شـيئاً.. فقرٌ إجباريٌّ يُزَادُ به إشـعارُ النفس الإنسانية بطريقةٍ عمليةٍ واضحةٍ كل الوضوح: أن الحياة الصحيحة وراء الحياة، لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمِّها حين يتساوى الناسُ في الشعور، لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألـم الواحـد، لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعـددة.. وبهـذا يضع الإنسانيـةَ كلَّها في حالـةٍ نفسـيةٍ واحـدةٍ، تتلبس بهـا النفس في مشـارق الأـرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوتَ الروح، يُعَلِّم الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشْبِع فيها بهذا الجوع فكرةً معينة هي كلُّ ما في الاشتراكية من الحق».

وكم هي ماسّةٌ حاجةُ أمتِنا لهذه المعاني الجليلة في هذه الأيام التي تطاول فيها الأعداءُ، وكثُر فيها السفهاءُ، ولم تسلم فيها الأيدي الآثمةُ- وإن كانت مسلمةً أحياناً- من الدماء المسلمة في مواطن كثيرةٍ وعزيزةٍ من جسد الأمة، في فلسطين قلب العروبة والإسلام، وفي يمن الإيمان والحكمة، وفي عراق التاريخ والحضارة، وفي سودان الخير، وفي القرن الإفريقي في الصومال، وفي أفغانسـتان، وباكسـتان، وتركسـتان الشـرقية، وغيرها على امتداد رقعة أمتنا الإسلامية المحروبة.

ولهذا فإن الإخوان المسلمين يحدوهم الأمل أن يكون رمضانُ هذا العام عنواناً لانطلاق تعاونٍ إسـلاميٍّ وعربي لتوحيد الموقف إزاء كل القضايا التي تشـغلنا، ولحقْن تلك الدماء التي تسـيل وتضـميد تلك الجروح التي تنزف، ورأْب تلك الصدوع التي فرقت بين أبناء الوطن الواحد، وباعدت بين أبناء القطر الواحـد والأمـة الواحدة، ويتوجه الإخوانُ بالنداء إلى كل حرٍّ أصـيلٍ من صُنَّاع القرار على امتداد عالمنا الإسـلامي أن يُسـهِم بما اسـتطاع في الإصـلاح بين الأشـقاء المتخاصـمين، والتقريب بين الفرقـاء المتباعـدين، والعمـل على تشـكيل موقف عربي وإسـلامي موحـد يعيـد للأمـة هيبتها وعزتها ومكانتها في العالمين.

3 – رمضان شهر الأمل ومواجهة اليأس:

في هـذا الشـهر المبارك حصـلت الانتصارات الكبرى في تاريـخ الأمـة، بدءاً من يوم الفرقان وفتح مكة حتى نصـر العاشـر من رمضان على الصـهاينة، وتحررت الإرادةُ المسـلمة من عُقَد الخوف واليأس والقنوط، وأدركت أن الصبر مفتاح الفرج، وأن مع العسـر يُسْرَيْن. أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ عَلَى نَبِيِّهِ r بِمَكَّةَ: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر:45)، فَقَالَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ t: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ جَمْعٍ؟ ذَلِكَ قَبْلَ بَـدْرٍ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَانْهَزَمَتْ قُرَيْشٌ، نَظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ r فِي آثَارِهِمْ مُصْلِتًا بِالسَّيْفِ، يَقُولُ: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)، وَكَانَتْ لِيَوْمِ بَدْرٍ... الحديث (الطبراني).

لم يكن أكثرُ القرشيين تشاؤماً يتصور أن جمعَهم سيولي الأدبار، وأن مكةَ المكرَّمةَ ستُفْتَح على المهاجرين والأنصار، وأن كلمةَ الله ستعلو بعد أن كان محمد r يختبئ في غار، ولكنَّ المؤمنين الصادقين كانوا ينتظرون تحقيقَ موعودِ الله لهم بالنصر، ويوقنون بتحقُّقِه على كل حال، بعد أن قال لهم نبيهم r: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ والنهار، حَتَّى يَدْخُلَ بَيْتَ الْمَدَرِ، وَبَيْتَ الْوَبَرِ، حَتَّى يُعِزَّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلامَ، وَيُذِلَّ الْكُفَّارَ» (الطبراني). كما لم يكن أكثرُ الصليبيين تشاؤماً يتوقَّع أن يخرج من بلاد الشام – فضـلاً عن بيت المقـدس- بعـد أن عَلَوْا فيها عقوداً من الزمان، لكنَّ صـلاحَ الـدين ومَنْ وراءه من جنـد الإيمان كانوا مُفْعَمِين بالأمل القوي في تطهير بيت المقدس وعموم بلاد الشام من كل أثر لأولئك المعتدين، وقد تحقق ذلك كله في رمضان.

ولا يزال رمضانُ والصـيامُ يعمل عمله في هـذه الأمـة التي اسـتعصت على الذوبان، ولا تزال (مدرسة الثلاثين يوما) تُخَرِّج الأحرارَ الذين لا يبالون بما يَلْقَوْن في سبيل نشـر دينهم وعِزَّة أوطانهم، ويَكُفُّون عن الشرِّ أيديَهم وألسنتَهم، على الرغم مما يجدون من ظلم ذوي قرباهم وأبناء جلدتهم من الحكام المستبدين وبعض الكتاب غير المنصفين

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على النفس من وَقْعِ الحُسام المهنَّد

ولا تزال ذاتُ المدرسـة تُخَرِّج الأبطالَ الـذين يقارعون العـدو ويَقْرَعونه، من كتائب القسام وسـرايا القـدس وكتائب الأقصـى وغيرهم من المجاهدين الـذين لم ينقطع أملُهم وأملُ الأمة معهم يوماً في نصـر الله والفتح، وإنهم لعلى موعدٍ جديدٍ مع دورةٍ تدريبيةٍ جديدةٍ في مدرسة الصـيام، تزداد بها روحُهم إشـراقاً وأَلَقًا، وإرادتُهم تصـميماً وعزماً، ونفوسُـهم ثقةً وأملاً في النصـر العزيز (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) (الإسراء:51).

ولا تزال مدرسة الثلاثين يوما تمد أهلها والملتحقين بها بالدروس النافعة، ولنا عودة إلى بعضها إن شاء الله.

كلمة إلى أهل غزة الصامدين:

أهنئكم وأهنئ كل شـعبنا الفلسـطيني في الداخل والخارج بالشهر الكريم، وأسأل الله أن يجعل لكم ولكل المظلومين فيه فرجاً ومخرجاً، وأن يجتمع شملُكم جميعاً في الدولة الحرة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

وكم ساءنا وساءَ كلَّ حرٍّ غيورٍ ما جرى من أحداثٍ مؤسفةٍ في رفح، وتمنينا لو أنَّ السلاح الذي رُفع في هذه الفتنة كان موجَّهًا إلى نحور الصهاينة، ولو أن الدماءَ المسـلمة التي سالت كانت قرباناً للنصـر على الاحتلال وعُربونا مقبولاً لإعلان الدولة الحرة على كامل التراب الفلسـطيني، ولكن أبى شـياطينُ الإنس والجن إلا أن تُطِل الفتنةُ بقرنها، وأن توقظ من نومها، وأبى اللهُ والمؤمنونَ إلا قطعَ دابرها ووأْدَها في مهدها.

وإني أتوجه إلى أبناء شـعبنا المجاهـد الصامد ألَّا يقبلوا بأن تختلطَ الأوراقُ وتلتبس الحقائقُ عليهم، وأن يحرِّروا ولاءَهم فلا يكون إلا لله ورسوله، وأن يحرِّروا أهدافَهم فلا تكون إلا في خدمة قضية التحرير لوطنهم، وأن يحدِّدوا عدوَّهم فلا يتجاوزوا الصهاينة ومَنْ ظاهرهم وحارب معهم، وأن يتبصَّروا ميدانَ الجهاد الحقيقي فلا يكون غيرَ الأرض التي اغتصـبها عدوُّهم، وأن يحتكم الجميعُ إلى منطق الشرع والعقل والحوار، حتى لا يشمتَ بهم أعداؤُهم، ولا يُسَاءَ بهم مُحِبُّوهم وأصدقاؤُهم.

وكل عام وأمتنا الإسلامية بألف خير، والله أكبر ولله الحمد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة فى : 29 من شعبان 1430هـ الموافق 20 من أغسطس 2009م